القيم الروحية والأخلاقية في رسائل الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأمراء جيوش الفتح

من خلال كتاب مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة لمحمد حميد الله

Moral values in the messages of the Caliph Abu Bakr Al-Siddiq, may Allah be pleased with him, to the princes of Conquest

سعد صدارة[1]

كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر1 (الجزائر) : saadsda1274@gmail.com

تاريخ إرسال المقال :2020/02/13 تاريخ قبول المقال: 15/01/ 2021 تاريخ نشر المقال: مارس/2021

الملخص

شهدت فترة الخلافة الراشدة منذ بداياتها مسارات عدة، كان العسكري من أبرزها بحكم الطابع التأسيسي لتقوية الدولة الناشئة، وفي مواجهاتها الحتمية مع الدولتين العظيمتين يوم ذاك فارس في الشرق والروم في الشمال والغرب، فكان لدولة الإسلام الحديثة جيوش اتجهت شرقا وشمالا، وكان على رأسها أفضل قادة الحرب، ورغم ذلك كان الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه يتعهد هم برسائله التي لم تكن تتضمن أوامرَ عسكرية وخططا حربية وتوجيهات سياسية فقط، بل كانت حافلة بإرشادات قيمية راقية اتجهت نحو الحفاظ على الشخصية المسلمة في بعديها الروحي والأخلاقي، في غمار الحروب والمعارك والمكايد والمؤامرات، وفي مواجهات مصيرية وجودية حاسمة، حتى لا تتحلل شخصية المسلم خوفا أو طمعا دنيويين، وحتى لا تنسى الغاية النبيلة التي خرجت لأجلها جحافل الفتح دفاعا عن الدولة والدين، ونشرا لرسالة الإسلام.

وقد كان اعتمادي في الوقوف على هذه القيم من خلال رسائل الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه التي بعث بها إلى قادة الفتح وأمراء الأمصار، طوال فترة حكمه، حيث مثّلت الوسيلة الرئيسية بينه وبينهم، وقد جمعها العلامة الباكستاني محمد حميد الله في كتابه: "مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة"، فقد كانت مبـثوثة في مخـتلف المصادر والمراجع التاريخـية الكثيرة والهامة، ولهذا اعـتمدته كمرجـع في دراسة الرسائل.

الكلمات مفتاحية: القـيم، القـيم الروحيـة، القيم الأخلاقية، أبو بكر الصديق، الخلافة الراشـدة، الفتوحات الإسلامية،

المؤلف المرسل : سعد صدراة ، الإيميل المهني: s.sdara@univ-alger.dz

Abstract

From its beginning, the period of the Righteous Caliphs witnessed several paths, the military being the most prominent of them by its foundational nature of strengthening the emerging State, and in its inevitable confrontations with the two great States of the time; Persia in the East and Rome in the North and West. The modern Islamic State had armies that went East and North, and on top of them were the best war leaders. Despite that, the Caliph Abu Bakr Al-Siddiq, may Allah be pleased with him, used to send them messages that did not include only military orders, war plans, and political directives, but they were full of high-end values whose purpose was to preserve the Muslim personality in its spiritual and moral dimensions, in the midst of wars and battles, and the machinations and conspiracies, and in fateful, decisive, and existential confrontations, so that the Muslim personality doesn't degrade because of mundane fear or greed, and so that it doesn't forget the noble goal for which the hordes of Conquest came out in defense of the State and religion, or to spread the message of Islam.

To deal with these values, I relied on the messages of the Caliph Abu Bakr Al-Siddiq, may Allah be pleased with him, that he sent to those leaders and princes during a whole year, and which represented the main means between him and them. Most of these messages were mentioned by the Pakistani scholar Muhammad HamiduLlah in his book: "Collection of political documents of the era of the Prophet and the Righteous Caliphs", which he collected from various important historical sources and references.

Keywords : The values, the spiritual values, the moral values, Abu Bakr Al-Siddiq, the Righteous Caliphs, the Islamic conquests,

المقدمة

مثلت فترة حكم الخلفاء الراشدين الممتدة بين السنة الحادية عشر للهجرة إلى غاية الأربعين منها؛ مرحلة استكمال لدولة الإسلام الأولى التي أقام النبي صلى الله عليه وسلم أركانها، وتمت في زمانها شريعتها، فشهدت بذلك جهودا عظيمة للدفاع عنها، بداية بحركة الردة التي تجندت لها أغلب قبائل الجزيرة العربية بسبب تأثير أدعياء النبوة كمسيلمة وسجاح وغيرهم، وبسبب رفض بعضهم لدفع الزكاة التي ادعوا بأنها صدقة تعطى للرسول الله صلى الله عليه وسلم دون غيره لغرض الدعاء لهم، لأن دعاءه طهر ورحمة، ولهذا لزعمهم في تأويل قول الله تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ) [1]، ولم يعتبروها ركنا من أركان الإسلام فعطلوها، مما جعل الخليفة الأول أبا بكر الصديق رضي الله عنه يحاورهم في الأمر ويجادلهم، لكنهم أصروا على موقفهم وخاصموا، فأعلن عليهم الحرب، لأنه أدرك بأنهم بموقفهم وتهديدهم هذا أصبحوا يشكلون خطرا على دولة الإسلام الناشئة. [2]

وبعد عام من الحروب في أرض الجزيرة؛ والتي نجح المسلمون بقيادة الخليفة الصديق في إنهاء تمرد قبائلها، استتب الأمر فيها تحت قيادة واحدة؛ أمكن بعدها من مواجهة تهديد الدولتين العظيمتين يوم

ذاك فارس في الشرق والروم البيزنطيين في الشمال والغرب، والتي دامت سنوات حتى منتصف خلافة عمر بن الخطـاب رضي الله عنه، وقد جرت فيها حروبا عظيـمة دان لهم بها المشرق السـاساني والشمال البيزنطي.

ورغم أن الحرب قتال دموي شرس، يسقط فيها عشرات الآلاف من البشر، إلا أنها تعتبر اللحظة الكاشفة لرسالة كل أمة والتي تبرز فيها قيمها على حقيقتها، إذ لا مجال في الحرب لإخفاء الحقيقة، خصوصا مع إرادة المواجهة الحاسمة، وفي محيط تتهدد الأخطار ويكثر فيه الأعداء وتتعدد معه جبهات القتال،بالإضافة إلى عامل خصوصية الدولة الحديثة، وإنجازاتها في التمكن من خصومها، وضم أراضي جديدة لأراضيها، وانسجام شعوب جديدة تحت سلطانها، فكل هذا من شأنه إظهار حقيقة هذه الأمة في شخصية رجالها وطبيعة رسالتها.

أ. الإشكالية:

من المهم ونحن نحاول تتبع هذه الفترة من خلال أبرز شخصياتها الفاعلة، ونحاول الوقوف على مدى التزامها بقيم الإسلام التي تربتعلى هديها، واختبارها خصوصا في ميدان الحرب، أن نتساؤل عن تجلياتها في الحاكم والقادة الفاتحين والجنود المؤتَمَرين، وآثارها البينة فيهم وهم وسط غبار المعارك أو بين عرصات القصور أو عند كنوزها وغنائمها أو في التعامل مع الشعوب والأسرى، وهذا الحاكم وهؤلاء القادة هم أهل الصحراء وسكان البوادي وأهل العوز والحاجة ؟

أم كيف يكون حال تلك القيم، هل تتلاشى وتندثر ويغلب طبعهم الجاهلي الأول، فيزدادون همجية ويمعنون في القتل والحرق والتدمير، ويتسابقون نحو المتاع من المال والملك والأرض الخصبة والدور الواسعة الفسيحة ونساء الفرس والروم الحسان ؟ وهم بهذا يعبرون عن حالة الإسلام العابرة والتي لم تغير شيئا في نفوسهم وطباعهم وتصوراتهم، فضاع كل ذلك بسبب التهلف على الدنيا، كما أمعن في وصفهم المستشرقون وهم يتكلمون عن أسباب الحروب التي قادها المسلمون تجاه فارس والروم، وأحوالهم فيها ؟.

وما مدى تأثير الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه، في القيام بمهام امتحان الإمارة الأولى بعد النبي صلى الله عليه وسلم، لكونه الصاحب الأول والأقرب والأعلم، والأكثر معرفة بأحوال العرب والحرب والجغرافيا، والذي يتمتع باحترام قادة المسلمين وعامتهم، ويمتلك القدرة على تقديم الصورة المثلى للإسلام وقيمه حتى في أوج الأوقات العصيبة والأزمات الحادة والحروب المتلاطمة، خصوصا عبر متابعاته وتوجيهاته وأوامره لقادة المعارك في شرق الأرض وشمالها؟.

ب. منهج البحث:

اعتمدت في هذه الدراسة على المنهجين الاستقرائي والتحليلي، والأول في الوقوف على مختلف القيم في رسائل الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأمراء الفتح، والثاني لأجل تحليل وبينا مدلواتها.

ت. خطة البحث:

وتم دراسة هذا الموضوع وفق الخطة التالية:

حيث قسمته لثلاثة مباحث، أما المبحث الأول ويتضمن ترجمة للخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه والكاتب محمد حميد الله، حيث عرفت بهما في مطلبين كل مطلب لشخصية منهما.

أما في المبحث الثاني فعرفت بالكتاب وبالرسائل، ففي المطلب الأول عرفت بالكتاب وبمصادره الأساسية وأقسامه، وفي الثاني ذكرت طبيعة هذه الرسائل وأنواعها، وفي المبحث الثالث فذكرت فيه أهم القيم الروحية في رسائل الخليفة أبي بكر، وأخيرا خصصت المبحث الرابع للقيم الأخلاقية في رسائل الخليفة.

وختمت هذا البحث بجملة نتائج هامة حول الموضوع.

1- ترجمة للخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه والكاتب حميد الله:

1-1 التعريف بالخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه[3]:

هو عبد الله بن أبي قحافة من تيم بن مرة، ويلتقي نسبه برسول الله صلى الله عليه وسلم في مُرَّة بن كعب بن لؤي، لقبه رسول الله بالعتيق، يُعد أول من أسلم من الرجال، وذلك حينما عرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام في بداية الدعوة، وقال فيه "ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة، ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ماعَكَم عنه حين ذكرته له ولا تردد فيه"[4].

وقد كان أبو بكر رَجلا مُؤلّفا لقومه مُحبّبا سهلا، وكان أنسَب قريش لقريش، وأَعلمَ قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رَجلا تاجرا ذا خُلق ومَعروف، وكان رجال قريش يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر: لعلمه، وتجارته، وحُسن مُجالَسته [5].

أسلم على يديه جمع من كبار الصحابة من بينهم عبد الرحمان بن عوف وسعد ابن أبي وقاص وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وغيرهم، وأسلم كل أبنائه أسماء وعائشة وعبد الرحمان وعبد الله، كما ساهم في إعتاق كثير من العبيد الذي أسلموا ومن أشهرهم بلال بن رباح [6].

ويذكر أنه التقى برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وكانت بينهما صحبة، واستمرت هذه الصحبة وتوطدت بعدها ولم يفارقه إلى أن توفي رسول الله، وذلك لوفائه وحكمته وتضحياته وكثرة إنفاقه حتى ذكر أغلب المفسرين أن قول الله تعالى (وسيجنبها الأتقى الذي يؤتى ماله يتزكى) [7] نزلت فيه لقول بن كثير "وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك . ولا شك أنه داخل فيها ، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى(وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى) ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة; فإنه كانِ صدّيقا

تقيا كريما جوادا بذالا لأمواله في طاعة مولاه ، ونصرة رسول الله ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم"(8)،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ماخلا أبا بكر، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا"[9]، كما عرف بتصديقه الدائم له منذ أن عرض عليه الإسلام وعبر كل الحوادث الكبرى التي وقعت لقبه بالصديق، فنال بكل هذه الخصال شرف الهجرة معه رسول الله إلى المدينة، وذكر الله تعالى إشارة بذلك في قوله تعالى (إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) [10].

وفي المدينة كان أقرب مستشارا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان معينا بماله فاشترى الأرض التي بني عليها مسجد النبي، وساهم بكل ماله لتهجير جيش العسرة، كما كان مشاركا في كل الأحداث وأهمها المغازي.

تزوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته عائشة رضي الله عنها وكانت أحب الناس إليه بعد خديجة رضوان الله عليها، وأمره الرسول صلى الله عليه وسلم ليخلفه في الصلاة بالناس أيام مرضه الذي توفي فيه، وكان له موقف عظيم في تثبيت المسلمين يوم وفات رسول الله وقال تلك المقالة المشهورة "من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقرأ عليهم قول الله تعالى (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ) [11،12].

اختاره من اجتمع في سقيفة بني ساعدة بُعَيد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بساعات خليفة من بعده[13]، وذلك يوم الاثنين 12 ربيع الأول سنة 11 للهجرة، ثم بايعه أهل المدينة كلهم بالمسجد يوم الثلاثاء، وامتدت خلافته سنتين ثم توفي بمرض أصابه.

وكان من بين ما قام به في عهده مواجهة مانعي الزكاة بعد أن أعلنوا الحرب على المدينة، وحربه على المرتدين من قبائل الجزيرة، فكانت حربا كبيرة جهز لها أحد عشر جيشا، وانتهت بتسليم القبائل ورجوعها ومبايعته.

وقبيل انتهاء أحداثها كلّف زيد بن حارث بجمع القرآن الكريم بعدما أشار عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك حينما سمع بأن أكثر من سبعين قارئا استشهدوا في حربهم ضد جيش اليمامة.

وبعدها بدأ حربا كبيرة على الفرس بالشرق والروم البيزنطيين بالشام، وكانوا قد بدؤوا في إثارة القبائل التابعة لهم والمجاورة لدولة الإسلام بالجزيرة لأجل زعزعة كيان الدولة الناشئة، فحمل عليهم المسلمون بجيوش قادها قادة بارزون من بينهم خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وغيرهم، وشملت في أيامه دولة المسلمين الجزيرة العربية كلها والبصرة والكوفة إلى شمال نهر دجلة وجنوب الشام.

2-1 التعريف بالكاتب[14]:

هو محمد حميد اللهولد بمدينة حيدر آباد الهند يوم 16 محرم 1326 هـ المصادف 1908 م نشأ وعاش بداية حياته ببلديته، ثم تنقل بين عواصم كبيرة عربية وإسلامية وغربية، فتعلم وأتقن لغات متعددة منها العربية والتركية والإنجليزية والفرنسية والألمانية، وببلد هاته الأخيرة نال درجة الدكتوراه بجامعة بون بأطروحة بعنوان "العلاقات الدولية في الإسلام"، كما واصل مشوار التحصيل العلمي ونال دكتوراه ثانية بفرنسا من جامعة السوربون بأطروحة حول "مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي وفي الخلافة الراشدة" موضوع دراستنا هذه، ثم رجع إلى حيدر آباد والتحق بالجامعة العثمانية هناك وعين أستاذًا في قسم الدين.

أُختير عضوًا في وفد رسمي يمثل حكومة حيدر آباد إلى الأمم المتحدة سنة 1948. وذلك لعرض قضية استقلال حيدر آباد وعدم رغبتها بالانضمام إلى الكيان الهندي؛ ولكن الحكومة الهندية المستقلة ضمتها قسرًا إلى جمهورية الهند قبل أن تتم مفاوضة أعضاء الوفد.

اختار فرنسا وبالتحديد عاصمتها باريس إقامة دائمة امتدت إلى 50 سنة، أسهم طوالها في مد جسور تواصل إيجابية مع مختلف النخب الفكرية، ودرس في جامعاتها محاضرا في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية والقانون، كما كان له دور فاعل في الاهتمام بالجاليات الإسلامية هناك، وكان له الدور الفاعل في تأسيس جمعية الطلبة المسلمين كفضاء لتجميع الطلبة المسلمين من العالم الإسلامي لفرنسا، ورعايتهم وتوجيههم وحفظ هويتهم.

كما أسهم في وضع قوانين في دولة باكستان الناشئة، ووضع أيضا خطة التعليم هناك.

تنقل لدول كثيرة عربية وإسلامية وغربية، كاتبا ومحاضرا ومناظرا، وقد بلغت مؤلفاته حدود 175 بين كتاب ومخطوط، من بينها مماله علاقة بموضوعنا مايلي:

- أنساب الأشراف للبلاذري، صدر عام 1959م بمصر.
- مقدمة في علم السير أو حقوق الدول في الإسلام في أحكام أهل الذمة لابن القيم، صدر بدمشق عام 1961م.
- سيرة ابن إسحاق المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، صدر بالرباط بالمغرب عام 1976م.
- كتاب الردة ونبذة من فتوح العراق للواقدي، صدر بباريس وبيروت عام 1989م.
- كتاب السير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيباني، صدر بحيدر آباد عام 1989م.

ومئات المقالات في القرآن والسيرة النبوية والفقه والتاريخ والقانون وغيرها، ومن بين الكتب قد نال جوائز عدة أهمها أعلى وسام في دولة باكستان نظير جهوده في خدمة السيرة النبوية، كما درس محاضرا في أغلب عواصم أوربا مثل فرنسا وألمانيا وبريطانيا بالإضافة إلى تركيا.

توفي بالولايات المتحدة الأمريكية سنة 2002 معن عمر ناهز أربعا وتسعين سنة، ولم يتزوج في حياته أبدا.

2- التعريف بالكتاب وبالرسائل:

2-1 التعريف بالكتاب

2-1-1 محتوى الكتاب ومصادره الأساسية:

عنوان الكتاب "مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة"، لجامعها ومنقحها ومرتبها العلامة محمد حميد الله من علماء الهند، وقد طبع الكتاب لأول مرة نهاية الخمسينات[15]، وأصل هذا الكتاب رسالة دكتوراه بالفرنسية تقدم بها الكاتب بجامعة السوربون بفرنسا سنة 1935م، ثم نشرها في كتاب وطبع ستة طبعات إلى غاية الطبعة التي بين أيدينا، وكان في كل طبعة يضيف وثائق أخرى وتعديلات إضافية، وقد اعتمدت الطبعة السادسة منه والتي قامت بطبعها دار النفائس ببيروت لسنة 1407هـ/1987م، وتقع في 759 صفحة برسائلها وفهارسها وملاحقها.

والكتاب بطبعته هذه المعتمدة في دراستنا مقسم إلى قسمين، الأول يختص بالوثائق المتعلقة بالعهد النبوي والثاني بعهد الخلفاء الراشدين[16].

أما مصادره التي اعتمدها لإخراج هذه الوثائق فهي كثيرة لكنه صرح بأن أهمها "طبقات بن سعد" في فترة العهد النبوي، وتاريخ الطبري وفتوح البلدان للبلاذري وكتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام. ثم يقول بأن كتابي سيرة بن هشام وكتاب الخراج لأبي يوسف هما أوثق مصادره.

2-1-2 أسباب اختيار هذا الكتاب:

يمثل الكتاب جهدا قيما في جمع وحفظ رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده وقادة الفتوح وولاة الأمصار في زمانهم، وما تمثله من كونها مصدرا أساسي الفهم أعمق لنظم الإسلام في الحكم والمال والقضاء والتنمية وفي الأخلاق والتربية وفي الحرب والصلح وغيرها.

والكتاب يمثل سبقا في موضوعه، إذ لا يعرف كاتب أفرد لهاته الرسائل مصنفا خاصا، ليسهّل بذلك على الباحثين والمفكرين الرجوع إليها بعد أن كانت مبثوثة ومتفرقة في كتب المغازي والسير والتاريخ، وبروايات مختلفة ومجتزأة، وماقدّمها لعلامة حميد الله يمثل مجهودا قيما حفزني لاعتماده مرجعا أساسيا في تدريس السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء الراشدين، لفهمٍ أدق لتفاصيل تلك المرحلة الهامة من تاريخ الإسلام، ولأجل استخلاص ما يمكن في مختلف الجوانب ذات الاهتمام، ومنها هذا الجانب الذي نحن بصدد دراسته.

2-2 التعريف برسائل الخليفة أبي بكر:

2-2-1 أنواع الرسائل التي كان يبعث بها الخليفة لقادة الفتح

الرسائل التي احتواها الكتاب والمـــتعلقة بالمراسلات السياسية والحربية في زمن الخليـــفة أبي بكر

الصديق رضي الله عنه جاءت في خمس وثلاثين صفحة، تحديدا من الصفحة 371 إلى الصفحة 405، ولم تكن كلها مرسلة من طرفه، بل شملت رسائل أرسلها أمراء الفتح إليه جوابا أو استفسارا أو إعلاما، وبعضها بين القادة أنفسهم، وبعضها بين القادة وأهل البلاد التي توجهت إليها جيوش المسلمين وأمرائها، وإدراجه مهم لأنها توضح لنا طبيعة المرحلة الحساسة والخـطيرة، وقدرة قادة المسلمين على إدارتها وتجاوز عقباتها.

وبحساب أدق فإن هذه الرسائل تكون بهذا التفصيل:

- مجموع الرسائل الواردة في مبحث أبي بكر الصديق تصل إلى 51 رسالة، وفيها رسائل بينه وبين قادة الفتح وأخرى بين قادة الفتح وخصوصا خالد بن الوليد رضي الله عنه وأمراء بلاد فارس وقادة جيوشها، وأخرى بين قادة الفتح أنفسهم كما كان بين خالد وأبي عبيدة ويزيد بن معاوية رضي الله عنهم.
- رسائل الصديق رضي الله عنه بلغت بذكر روايات مختلفة 27 كتابا، وبدون ذكر تعدد الروايات تصل إلى 23 رسالة.
- رسائل خالد بن الوليد لقادة الفرس وولاة مدنها وأهلها لأجل الدعوة للإسلام أو الصلح أو القتال بلغت 21 رسالة، وأخرى بينه وبين قادة الفتح في الشام، وأغلب هذه الرسائل أوردها الكاتب بنصها، والباقي ذكرها بدون نص الكتاب الأصلي.
- رسائل ذكر أنها وقعت ولكنه لم يورد نصها الأصلي، وهذه بلغت ثماني رسائل.
- رسالة واحدة لأهل الشام أرسلوها في بداية الحرب مع المسلمين إلى ملك الروم يخبرونه فيها بقدوم المسلمين ويدعونه لنجدتهم.

2-2-2 طبيعة وظروف هذه الرسائل:

أ- رسائل أرسلها خليفة المسلمين إلى قادة الجيوش

الرسائل التي تعنينا في دراستنا هي الرسائل التي أرسلها رئيس دولة المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق رضي الله عنه لقادة جيوش المسلمين سواء في المشرق في حروبهم مع دولة فارس، أو في الشمال بالشام في حروبهم مع دولة الروم، والتي دامت فترة حكمه الممتدة من ربيع الأول من السنة الحادية عشر إلى جمادى الآخرة من السنة الثالثة عشر، وقد دلت على حرصه الكبير في متابعة سير الأحداث بتفاصيلها الدقيقة لضمان نجاحها وبلوغها أهدافها، كما حملت في ثناياها تصريحا وتضمينا لقيم جليلة في السياسية والإدارة والاجتماع والأخلاق، وهذا مقصدنا من البحث، ودلت بدورها على سمو المسلمين في ذلك الزمن، وسمو الرسالة التي نذروا أنفسهم لنشرها والدفاع عنها وإقناع الناس بصلاحها وفضلها.

ب- رسائل متنوعة الأغراض والموضوعات

لم تكن هذه الرسائل ذات غرض واحد، بل تنوعت لتشمل أغلب المجالات المتعلقة بتلك الفترة الحساسة، من إدارة لشؤون الدولة ومقتضيات توسعها خصوصا، وفق حركة قادة جيوشها الذين تميزوا بكونهم أصحاب رسالة هداية وتبليغ إلى سائر المجتمعات والدول التي تصل إليها خيولهم، تعريفا بالإسلام وعقيدته وشريعته وقيمه وأخلاقه، فكانوا يبنون دولا ويقيمون نظما ويؤسسون علاقات دولية جديدة أساسها ضمان السلم وكرامة الإنسان وأمنه وحريته، والاستجابة لاحتياجاته ومصالح المجتمعات، فدخلت بذلك أرض فارس والروم ومصر وشعوبهم في ظل حكم دولة الإسلام، واستقرت قرونا طويلة.

حُكم الدولة بهذا المفهوم والأبعاد أسهم في تنوع موضوعات الرسائل لتواكب ذلك الحراك الدولي الذي بدأ يؤسس لنظام جديد يقود العالم ويتحكم في علاقاته، فجاءت بهذا التنوع والأهمية والهدف، وقد أورد صاحب الكتاب أهم موضوعاته االتي شملت[17]:

أ. المعاهدات الجديدة أو تجديد ماسبق من المعاهدات
ب. الدعوة إلى الإسلام
ت. تولية العمال وذكر واجباتهم وكيف ينبغي لهم أن ينصرفوا في أمر من الأمور
ث. العطايا من الأراضي أو الغلات أو غيرها
ج. كتب الأمان والتوصية
ح. ماذكر فيه من استثناء بعض الأوامر في حق أناس معيّنين.

ت- مرحلة تتسم بالخطورة وحداثة دولة الإسلام

لا شك أن تلك المرحلة كانت من أشد الفترات على الدولة الناشئة حديثا من جهة:

- تكوين الدولة في حد ذاتها والتي هي في عامها الحادي عشر فقط، ولا تزال في تسييرها التقليدي ولم تشهد تطورا فعليا في إدارتها ومؤسساتها، بمقابل دول متجذرة أقلها تعيش قرنها الرابع، وقد تجذرت في مؤسساتها وتقاليد حكمها وإدارتها، وتحكمها في حركة شعوبها، وامتدادها على الأرض في رقعة شاسعة أمكنت من أن تكون أقوى دول العالم والمتحكمة في جزء هام من أخصب أراضيه.
- خروج دولة المسلمين الحديثة ومعها المسلمون جميعا في الجزيرة من حرب كادت تقضي عليهم جميعا، وهي حروب الردة التي قاربت العشرين حربا من اليمن إلى البحرين إلى اليمامة وغيرها، وقد أخذت من المسلمين الوقت والجهد والأرواح، وتردد حتى لدى قادة المسلمين في الموقف منها وكيفية إنهائها وإنقاذ دولة الإسلام، لولا حزم الصديق رضي الله عنه وقدرته على إقناع الجميع بضرورتها وخطورتها.

- قلة العدة والعتاد والمؤونة، ونحن نتكلم عن دولة حديثة شبه فقيرة، إذ لم تقم التنمية الصناعية ولا الفلاحية والتجارية على ساقها بعد، وأكبر داعم لها ومقوي لعزيمتها ودافع لهبتها نحو الجهاد هو قوة إيمان المسلمين وتجردهم من الدنيا وسعيهم لمرضاة الله والجنة، وهذا كان يكفي معه العدة والعتاد القليلين، مع الزاد الذي يسد الرمق فقط، ولهذا كانت حركة الجيوش خفيفة وسريعة وقادرة على إحداث الفرق والنصر على جيوش الفرس والروم التي كان أقلها 60 ألف مقاتل وأكثرها تجاوز 100 ألف إلى 200 ألف، في مواجهة جيوش متفرقة بعضها بالفرس وبعضها بالشام تصل مجتمعة إلى قرابة 40 ألف، ومتفرقة لا يكاد يجتمع الجيش على 20 ألفا.
- حركة جيوش المسلمين وقتالهم في أرض عدوهم، وبالتالي قلة المعرفة بالأرض وطبيعتها ولا بأهلها، مع ابتعاد متواصل عن مركز دولة الإسلام بالمدينة المنورة، مما يشكل خطورة انقطاع الأخبار وصعوبة وصول المدد وسهولة محاصرتهم، بالإضافة إلى أراضي مقفرة كالصحراء الكبرى في الجزيرة، والخالية إلى وسط العراق وشمالا إلى الشام.
- بالإضافة إلى سياسة أبي بكر الصديق في قتاله الفرس والروم في وقت واحد، وهذه تعد مخاطرة كبير في ظل تلك الظروف الصعبة والقوة غير المتوازنة تماما، وكان الرهان عليها في حد ذاته مغامرة كبيرة، لولا حكمة الصديق وقدرته على متابعة حركتها وتسييرها وفق أهداف محددة وخطة مضبوطة واستجابة سريعة للمستجدات والطوارئ، أمكن من تجاوزها وحسم معركتها وفي فترة وجيزة جدا.

2-2-3 قواعد أطّرت هذه الرسائل:

أطّرت هذه الرسائل التي أرسلها الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه لقادة جيوش الفتح قواعد هامة، ظهرت ماثلة لتؤكدأن الخليفة يرتبط بمنظومة دقيقة وواضحة،في مختلف أبعادها الإيمانية والأخلاقية والتشريعية، ضمن سياسة حكيمة وعادلة ونشطة تواكب التغييرات المتسارعة داخليا، وخارجيا بشكل اكبر وأهم، وإدارة رغم حداثة الدولة والتجربة والتحديات.

وتجلت هذه القواعد العامة في:

أ- **تفعيل الشورى،** حيث حرص على إشراك كبار الصحابة والأمراء والقادة لضمان إنجاز المهمات الكبرى كتنظيم مؤسسات الدولة وتسيير شؤونها، وإنجاح حركة الفتح وإدارة البلاد الجديدة ورعاية أهلها، ومواجهة أهم التحديات لتجاوزها، وأشد المشكلات لعلاجها، ولهذا عمد إلى تفعيل مبدأ الشورى الذي وصف به الله تعالى المؤمنين ووجههم إليه، (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) [18]، واستطاع بذلك تعميق الثقة بينه وبينهم ومع من هم تحت إمرتهم، والاستفادة من خبراتهم وقدراتهم، وإظهار تقديرهم مع تأدية حق الطاعة عن قناعة وبصيرة، ولهذا لم تكن

الرسائل أوامرا للتنفيذ فقط، بل أخذت الشورى فيها حيزا كبيرا.

ب- الشعور بالمسؤولية، إذ ألمح التواصل الدائم من الخليفة لقادة الفتح وأمراء الأمصار بما يستشعره الخليفة أبو بكر من مسؤوليات كبرى ألقيت على عاتقه، خصوصا مع فتح جبهات الفتوح في العراق والشام وفي زمن واحد، وما ينجر عن ذلك من تبعات ضخمة، كما أنه من شأنها التذكير بمسؤولية كل قائد وضرورة تنفيذ مهماته على الوجه الأفضل، خصوصا حينما نجد رسائل تفتتح بالتذكير بتقوى الله وخشيته، والتزام طاعته وتأدية عباداته، وعظم الأمانة الموكلة إليه، ومسؤوليته عن كل من هم تحت إمرتهم، والتنبيه المتكرر على التزام وصاياه في التعامل مع أعدائهم في بدئهم بعرض الإسلام ثم الصلح وأخيرا القتال، والقيام بتبعات كل واحدة منها على وجهها، كل هذا من شأنه الإشعار بعظم المسؤوليات الملقاة على كل قائد وأمير، وضرورة مراعاتها خشية لله وقياما بواجب الإمارة وتحقيق للعدل وإثباتا للجدارة.

ت- متابعة حركة الفتح وتبعاتها،حرصا على إنجاز الجيوش لمهماتها، وتحقيق أهدافها، والعناية اللازمة لتوفير احتياجاتها في كل مرحلة من عدة وعتاد ورجال ورأي وتوجيه، خصوصا في تلك المرحلة الحساسة التي كانت تقتضي معرفة بأدق التفاصيل عن جيوش المسلمين وقوات الأعداء وعدتهم وخططهم، وعن طبيعة الأرض. وإعلاما بكل جديد طارئ على مستوى الدولة.

3- القيم الروحية في رسائل الخليفة أبي بكر

3-1 إخلاص الجهاد لله وحده والتعلق بثوابه

فيالإسلام رأس الأمر إخلاص العمل لله عز وجل، صغيرا كان أو كبيرا، ولا قبول لعمل إلا بنية صادقة في وجهتها لله وحده دون سواه، ولا تُخْفي وراءها أي قصد من مقاصد الدنيا، ولهذا حرص الإسلام على تقرير هذه القاعدة والتذكير الدائم بها، لقوله تعالى (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [19]، وقال تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) [20]، وتوجيه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم "إنما الأعمال بالنيات"[21].

ولهذا حرص المسلمون لقبول أعمالهم ونيل مرضاة ربهم على إخلاص العمل والعبادة لله وحده، وهكذا حرص الخليفة أيضا وهو ولي أمر المسلمين على تذكيرهم الدائم وهم في غمار المعارك ومقارعة العدو في جبهات القتال، أن يتذكروا أنهم جنود في سبيل رسالة سامية ترتبط بالسماء التي ستعرج إليها أرواحهم الزكية، فلا يعكر صفوها ارتباط بشهوة نفس طمع في مغانم دنيوية، ولهذا لم يخلو كتاب لقادة الفتح من تذكير بهذا المعني الكبير.

وقد قال الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه في رسالة بعث بها إلى جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه حين أمرهم بالمسير إلى العراق بعد الانتصار في حرب اليمامة جاء في آخرها "ولا تتنأأوا

عن المسير فإنه سبيل يعظم الله فيه الأجر والثواب، ويزيد فيه الحسنات لمن حسنت بالجهاد نيته وعظمت في الخير رغبته"[22]، فكلمة لمن حسنت بالجهاد نيته توجيه عميق لربط القبول بالنية، وخصوصا في الجهاد وما فيه من تضحيات عزيزة بالنفس وإلقائها في لجج الحرب وماقبله من معاناة المسير وقلة الزاد وترك الأهل والمال والمضي في سبيل قد لا يرجع منه، فوجب والمشقات كبيرة أن تكون النية حاضرة لقبول كل هذا السعي العظيم.

3-2 الثقة بالله واليقين في نصره :

لا يمكن أن يعطي الإنسان لأمر كُلَّه إلا إذا اكتملت الثقة فيه ووصلت درجة اليقين، وحينها يتقدم ثابتا مستعدا لدفع كل التضحيات لأجل تحصيل ماجند نفسه له، وهكذا كان الخليفة الصديق الذي كان أول من أسلم دون تردد، وبقي كذلك مقداما منفقا مجاهدا متحملا كل الأذى، مدافعا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وناصرا للإسلام وحافظا لأمته خصوصا لما ولي الخلافة ووجد نفسه وسط مهماته الثقيلة فلم يشهد عنه التردد أو التراجع أو الخوف مع اجتماع قبائل الجزيرة لقتال المسلمين، فجهز الجيوش يحثها على النصر والدفاع عن دين الله وأرض الإسلام فيما عرف بحروب الردة، لكنه كان أكثر همة وثقة وعزما مع بدأ مرحلة الفتوح، التي دخلها وقد حسم بالنصر مستعينا بربه وثقة كاملة فيه، فتجسدت هذه المعاني في أمراء الفتح وجنده الذي لم يهابوا قوات الساسانيين الجرارة ولا قوة الروم العظيمة.

إن عمل الثقة أساسي وحاسم في مواجهة المخاطر الكبرى، ولهذا حرص الخليفة الصديق على التذكير بها والحث عليها لتثبيت أصحابه ودعم نفسياتهم وربطهم بربهم الذي وعدهم بالنصر والتمكين في الأرض إن حققوا مايوجب ذلك (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [23].

فقد جاء في كتابه لخالد وجيشه بعد ان انتصروا في حروب الردة وإخماد الفتنة فقال "الحمد لله الذي أنجز وعده وصدق عبده وأعز أولياءه وأذل أعداءه، وأظهر دينه وهزم الأحزاب وحده، وقد الله المؤمنين وعدا لا خلف فيه وقولا لا ريب فيه"[24]، ثم قال بعد ذلك "فثقوا عباد الله بموعود الله"[25]، وهذا ترجم حاله مع ربه سبحانه فظهر واثقا شاكرا، ومذكرا جنده فكلمة عباد الله ليعلموا أنهم عباد لله لتحقيق معنى العبودية المتعلقة بالخالق سبحانه فلا ينسبوا نصرا لأنفسهم وإنما لله سبحانه.

3-3 التعلق بثواب الجنة

التعلق بثواب الجنة أسس له القرآن الكريم في مواضع عديدة ليرتبط الإنسان بها في كل عمله تفكيرا وتنفيذا، لما تمثله من أجر عظيم يوم يرجع البشر لخلقهم وتبدأ حياة الخلود فإما إلى جنة فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم ، وإما إلى نار جهنم فيها من العذاب أيضا

مالا يخطر على قلب بشر، أعاذنا الله منها، ولهذا لا يفرط مؤمن عاقل في الجنة، بل سيسعى جاهدا لأن تكون ثوابه، ولهذا جاءت الآيات الكثيرة التي تصف الجنة وتحث المؤمن على أن تكون حياته الخالدة فيها، "وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ"[26]، وكان الجهاد خير أبواب المسارعة، وكان ثوابه خير ثواب وأعلى منزلة.

ولهذا نجد الخليفة الصديق رضي الله عنه يحرص على هذا المسلك ليشعر القادة والأمراء ومعهم كامل الجند بأن يستصحبوا معهم هذا المعنى العظيم فيتحملوا لأجله كل الشدائد، ويستنهضوا العزائم لأجل تحقيق أهداف الفتوح.

ومن بين ما جاء في رسائله في هذا المعنى قوله "وقد أخبرنا الصادق المصدوق محمد صلى الله عليه وسلم: أن الشهداء يوم القيامة يحشرون وسيوفهم على عواتقهم، وأوداجهم تشخب دما فلا يتمنون على الله شيئا إلا أعطاهم إياه، حتى يوفوا أمانيهم ومالم يخطر على قلوبهم، فما من شيء يتمناه الشهداء يومئذ بعد دخول الجنة إلا يُردوا إلى الدنيا فيقرضوا بالمقاريض في ذات الله، لعلمهم ثواب الله"[27].

إن إدراك الجندي لهذا المعنى والتعلق به سيجعل كل همه وهمته يتجهان نحو إحدى الحسنيين، إما النصر على العدو وتحرير الناس من سطوة طغيانه وظلمه وفرض حكمه الذي يلغي حقهم في اختيار دينهم وشريعتهم وحاكمهم، وسيكون مع هذا التمكين لدين الله لأن الناس لن يجدوا خيرا منه ولا حقيقة أصدق منه، وإما الشهادة في سبيله، وهذه أمنية عظيمة يلقى بها ربه وقد جند نفسه لمرضاته ونصرة دينه وترك الدنيا كلها وراءه لأجل ذلك.

ومن شأن هذا الأمل العظيم في جنات الخلد أن يكسب الإنسان قوة وشجاعة وإقداما، فلا يخاف ولا يهاب ولا يعطي لتجهيزات العدو وقواته بالا لأنه يريد الموت بل ويسعد له، وهذا النوع من البشر يخافهم العدو الذي يريد جنده الحياة ويحرصون عليه ويتسابقون لأجل الترقيات والمكافآت، أما هو فلا ينظر إلى هذه الأشياء ولا يعطي لها أدنى قيمة، ولهذا قالها قادة الفرس والروم عن المسلمين وشعروا بالفارق الكبير بينهما، واعتبروا هذه النفسية فارقا أساسيا يحسم المعركة.

4- القيم الأخلاقية في رسائل الخليفة أبي بكر

4-1 التواضع:

هذه القيمة كانت جلية اتسمت بها أغلب الرسائل، وهي تبرز السمو الأخلاقي للخليفة الذي يبدأ رسالته باسمه الشخصي "من عبد الله بن عثمان" ثم يذكر صفته "خليفة رسول الله" صلى الله عليه وسلم لا على القيمة والمكانة وإنما على الحال كونه أول خليفة خلف رسول الله في إمارة المسلمين ورعاية شؤونهم، وهذه الحال كانت مع أغلب الرسائل وأولها رسالته[28] إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه وهو يسيره من اليمامة بعد أن قضى على مسـيلة وجيشه، وأعاد أهلها إلى حكم الإســـلام، وأرسله إلى العراق

لأجل وقف تهديدات الفرس للمسلمين.

4-2 ثانيا: ربط الجهاد بفضله وأمر الله فيه:

لطالما ذكر في كتبه لقادته ولجند الجيش ولعموم المسلمين وهو يستنفرهم للجهاد، بأن أمر الجهاد هو تأدية لمهمة عظيمة في الإسلام لا تعدلها مهمة، لفضله عند الله عز وجل أولا، مما جعل أغلب رسائله في هذا الغرض لا تخلوا من آيات الجهاد المذكرة بغايته في سبيل الله وليس في سبيل دنيا.

جاء في كتابه إلى أهل اليمن يحفزهم للمشاركة في الفتوح مع جيوش الشام فقال "إن الله كتب على المؤمنين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا (خفافا وثقالا) وقال تعالى (وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [29]، فالجهاد فريضة مفروضة وثوابه عند الله عظيم"[30]، وهذا لربطهم بالله عز وجل الآمر بجهاد العدو الذي جيش الجيوش العظيمة لأجل تهديد دولة الإسلام وضرب كيانها.

ولا نجد تحفيزا للمؤمن أقوى من توثيق صلته بالله ليتجرد عن أطماع الدنيا ويتحمل أعباء الحرب ومشاق السير الطويل، إذ هي مسيرة آلاف من الكيلومترات بين اليمن والشام، فقد يقضي في الطريق ولا يصل، بالإضافة إلى حرص الخليفة على أن لا يضيع أجرهم عند ربهم وقد بذلوا التضحيات الغالية والعزيزة التي سيكون ثوابها رضا الله وجنة عرضها السماوات والأرض، وهذا خير من الدنيا ومغانمها، هذا بالإضافة إلى أن الحرب انتصار أو هزيمة، ولهذا يكون الارتباط بالهدف الأخروي الأسمى وليس المغانم التي لن يحصل منها شيئا إن قتل أو انهزم.

4-3 ثالثا: سياسة تأمير القادة وحفظ قدرهم:

ينضبط الخليفة أبو بكر بسياسية راشدة في التأمير، ويفرق بين الإمارة على الجيش والإمارة في الولاية وغيرها، ولهذا لما أرسل خالدا بجيشه إلى الشام الذي تتواجد فيه جيوش المسلمين لقتال الروم البيزنطيين، وعليها أمير وهو أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، جعل أبو بكر خالدا هو الأمير على جيوش الشام كلها وعلى أبي عبيدة، موضحا هذا الوضع القيادي الجديد في الكتاب الذي بعثه أبو بكر لأبي عبيدة وجاء فيه "أما بعد فإني وليت خالدا قتال الروم بالشام، فلا تخالفه واسمع له وأطع أمره، فإني وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليس لك، اراد الله بنا وبك سبيل الرشاد"[31].

وهذا النص يمثل معلما هاما لمدى الرشادة السياسية التي كانت تنضبط بها إدارة الخليفة في تسيير الدولة ومنها الجيوش، فهو يميز بين قائد يحسن قيادة الجيوش وخبير بالمعارك ومهندس للخطط العسكرية الناجحة، وقناص لفرص التفوق وإحراز الانتصارات، مع نفسية قوية قادرة على التعبئة والإقدام والمواجهة، وتملك التأثير في الجنود وقدرة على تحريك الجيش وتوزيعه وتنظيمه وتغيير حركته في اللحظات الحرجة والمناسبة، وبين قائد وإن كان صاحب قتال وممارس في الحروب لكنه ليس بوزن الأول، فأبو عبيدة قائد حربي بدليل قيادته لجيوش الشام وأمير على قادة عسكريين كبار أمثال عمرو بن العاص ومعاوية ويزيد

ابنا أبو سفيان وغيرهم، وقد حقق انتصارات عسكرية منذ وجوده في الشام، لكن بالوزن مع خالد بن الوليد فإن الفرق شاسع، ولا يمكن إلا أن يكون تحت إمرته.

لكن الخليفة أبو بكر لم يتوقف عند الأوامر فقط بل قال لأبي عبيدة "وأنا أعلم أنك خير منه" وليس هذا تلطيفا له أو استرضاء، بل يقصد مكانة أبي عبيدة في أسبقيته في الإسلام وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتضحياته وعلمه وأمانته فهو أمين الأمة كما لقبه رسول الله، ولهذا يفضل على خالد بن الوليد، لكن المقام مقام مهارة عسكرية وخالد يتفوق على الجميع فيها، فمنحه الخليفة هذا المنصب، وهذا الذي قاله لأبي عبيدة عن خالد "ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليس لك".

4-4 ذكر محاسن قادته والثناء عليهم:

لم يجد حرجا خليفة المسلمين من ذكر محاسن من يكلفهم بمهمة كقائد لجيش من جيوش الفتح، خاصة حينما يبعث برسالة إلى قائد آخر ليتعاون مع الأول، فيعرفه بخصاله ليعرف الثاني قدره ومنزلته وأخلاقه، فيزيد استوثاقا منه ومعرفة له واعتمادا عليه.

وأعتبر هذا من الأخلاق الراقية وقد كان في غنى عنها خصوصا في بعدها الأخلاقي، فقد نتفهمها سياسيا حينما يذكر بعض الخصال الحربية أو السياسية، لأنه الإمارة مكانهما الطبيعي، لكن التركيز على أخلاقه دليل على أن منظومة الأخلاق كانت أولوية بالنسبة للخليفة الصديق وقادة وأمراء ذلك العصر، ومن خلالها يعرف الرجال وتعرف مكانتهم.

أ- **ثناؤه على خالد بن الوليد رضي الله عنه:**من بينها ما جاء في رسالته إلى المثنى بن حارثة رضي الله عنه وقد طلب من الخليفة المدد في قتاله للفرس وقد بدأ يزداد خطرهم وحجم جيوشهم، فبعث إليه الصديق بجوابه، ومن بين ما جاء فيه "أما بعد فقد بعثت إليك خالد بن الوليد إلى أرض العراق فاستقبله بمن معك من قومك، ثم ساعده و وازره وكانفه، ولا تعصين له أمرا، ولا تخالفن له رأيا فإنه من الذين وصف الله تبارك وتعالى في كتابه (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا) "[32][33].

ب- **ثناؤه على المثنى بن حارثة رضي الله عنه:**جاء في رسالة الخليفة الصديق إليه يوضح له وضعه القيادي في فتوح العراق، أمره فيها بلزوم أرض العراق والبقاء تحت إمرة خالد، وإذا غادر خالد العراق أصبح المثنى هو أمير الجيش فيها، وفي آخرها يقول مثنيا عليه مبينا لمكانته "فإذا خرج خالد بن الوليد فالزم مكانك الذي كنت به وأنت أهل لكل زيادة، وجدير بكل فضل"[34].

ت- **ثناؤه على أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه:** وقد جاء هذا الثناء في الرسالة التي يؤمر فيها خالدا على جيوش الشام التي كانت تحت إمرة أبو عبيدة، وهي الرسالة التي بعث الخليفة أبو بكر لأبي عبيدة ليخبره بهذا التأمير الجديد، وفي نفس الوقت يوضح له السبب، وفيها يأمره بطاعة الأمير

الجديد خالد وعدم مخالفته، ولكنه يطيب خاطره بثناء خاص يقول فيه "فإني وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه"، وهذه الخيرية ليست مجاملة لتهدئة نفسه أو توهيمه بما ليس فيه، بل هو المعرفة الحقيقة والكلمة الصادقة فيه، فأبو عبيدة بن الجراح من أوائل من اسلم في مكة، ولقبه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أمين هذه الأمة، وهو احد المبشرين بالجنة، وهو الذي رشحه أبو بكر الصديق يوم السقيفة ليكون خليفة للمسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكل هذه المناقب تجعله فعلا في الموقع الأفضل والخير.

4-5 معرفته بدقائق تفاصيل حركة قادته ومعاتبتهم على عدم الاستشارة:

وهذه ميزة هامة في الخليفة أو الأمير في معرفة تفاصيل تحركات قادته حتي في حياتهم الشخصية وهم في أرض المعركة قبل الحرب أو بعدها، حتى لا تختلط أمور الجيش وخطط الحرب وحركتها المرسومة التي لا تتعلق بشخص القائد فقط أو بجيش وإنما بمسار دولة صاعدة تصارع أكبر قوتين في الأرض في ذلك الزمان.

والذي يستوقفنا هنا هو ماحدث من خالد رضي الله عنه وقد كان أمير جيوش العراق، وقد جاءه الأمر من الخليفة الصديق بأن يتحرك لمساندة جيوش الشام التي جهز لها الروم البيزنطيين جموعا ضخمة لحربهم، فتحرك خالد بأكثر جيشه نحو العراق، ولأن الطريق طويلة، فقد وجد بأن يذهب للحج ويرجع سريعا قبل وصول الجيش للشام خاصة وأنه أمر بأن يتحرك الجيش في الأرض الغربية للعراق وهي براري مسافتها بعيدة لكنها آمنة، فوصل هذا الأمر الخليفة الصديق، فبعث بكتاب لخالد بعد أن رجع من حجه والتحق بالجيش، ومما جاء في الكتاب "سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شَجوا وأشجوا، وإياك أن تعود لما فعلت، فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك، ولم ينزع الشجي من الناس نزعك"[35].

وهنا نقف على منهج تربوي راق جدا في سياسة القادة، وفي أرض المعركة ولحظات حساسة دقيقة، تجمع فينها بين العتاب والأمر بعدم الرجوع لمثل ما فعل، في كونه ذهب حاجا متخفيا ولم يخبر الخليفة وقد أمره بالتحرك نحو العراق والأصل أن لا يفعل ولا يترك الجيش لقائد آخر لم يرشحه الخليفة، وحتى لو كان الأمر يتعلق بحج وهي الشعيرة العظيمة الجليلة، لكن فقه الأولويات يجعلها ثانوية مؤجلة لأن واجب الوقت يقتضي القيام بما هو فيه من قيادة للجيش وتسريع له للحاق بجيوش الشام المحاصرة ومناصرتها.

لكنه عتاب يشعرنا برحمة الخليفة الذي لا يتوعد بعقاب قاس ولا يعزل ولا يسب ويشتم، بل ينبه ويطلب بعدم العودة، ولكنه في نفس الخطاب وبعدها مباشرة يمتدحه ويعلي من شأنه ويعترف بقيمته وقدراته الكبيرة التي تحتاجها الدولة في حربها مع عدوها.

الخاتمة

مايزال البحث في هذه الفترة الهامة من تاريخ الأمة الإسلامية وهي الخلافة الراشدة يحتاج إلى بحث دقيق وشامل لأجل الوقوف على مختلف النظم التي بُنيت عليها دولة الإسلام الأولى، لكونها تمثل إتماما لتأسيس بدأه النبي صلى الله عليه وسلم وأكمله قادة الصحابة من بعده، فهم أفضل من تعلم وتربى وتدرب وجرب وفهم المنهج النبوي، ولأجل هذا كان اختيار موضوعنا النابع من هذا النبع، والذي توصلنا فيه إلى جملة استنتاجات، أهمها:

- التأكيد على أخلقة منظومة الحكم كضمانٍ لصلاح الحاكم وعُمّاله وقادته وأمرائه، وضمانا للقيام بمسؤولياتهم ومهامهم تجاه الدولة والرعية على الوجه الحق، وهذا الذي أمكن من سيادة القيم السامية كالعدل والشورى وحفظ الأمانة والتقويم والنزاهة وغيرها مما جعل أئمة المسلمين وعلمائهم يجمعون على رشادة تلك الفترة من تاريخ الإسلام.
- أن القيم الروحية والأخلاقية الفاضلة أصل في شخصية المسلمين عموما وفي قادتهم وأمرائهم بشكل أخص، لكونهم يَلون شؤون الدولة ويرعون مصالح الرعية، ولهذا لم تخل رسالة من قيمة تؤكد أو توجه أو ترشد.
- مرجع هذه القيم نابع من مدى ارتباط المسلم بربه، فكلما كانت العلاقة متينة وحية ودائمة كلما كانت قوية وعميقة ومؤطرة لحركة المسلم في حياته، فهي متحققة من خوف الله وخشيته وإرادة ثوابه وجنته.
- حِرْص الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه على التأكيد عليها في كل رسالة لأجل تذكير قادة الفتوح بمهمتهم الكبيرة وهي دفع الظلم وإقامة العدل، وغايتهم النبيلة وهي مرضاة الله تعالى، وخشي في خضم التخطيط للحروب وخوض غمارها وتبعاتها من غنائم وانتصارات أن ينسوا حقيقتهم ووظيفتهم.
- مدى تفاعل قادة الفتح وأمراء الأمصار مع توجيهات الخليفة وآرائه السديدة، وفي نفس الوقت التفاعل الإيجابي للخليفة مع آرائه وحاجتهم لتدبيره وحنكته، ثم استجابتهم السريعة لأوامره، وكل هذا شكّل وحدة واحدة تتحرك لتحقيق الأهداف العليا، وضمان النجاح في مهماتهم الأساسية.
- حجم الإنسانية في العلاقات بين الخليفة وقادته، وفي أجواء حرب ساخنة مفتوحة على كل الاحتمالات، ورغم ذلك خطاب عامر بالحب والتقدير ومراعاة مشاعر بعضهم وقدر كل منهم.

الهوامش

1. سورة التوبة، الآية 103
2. يراجع تفصيل حروب الردة عند: علي ابن أبي الكرم محمد ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2 ص 201 ومابعدها. اسماعيل ابن عمر بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج9 ص 437 ومابعدها.
3. أنظر: محمد بن هشام، السيرة النبوية، ج1 ص 285 وما بعدها. وأيضا: الإمام الذهبي،تاريخ الإسلام ومشاهير وفيات الأعيان، ج3 ص3 وما بعدها. وكذلك:السيوطي،تاريخ الخلفاء، ص 26 وما بعدها. وأيضا: ابن كثير، كتاب البداية والنهاية، ج 6 ص 332 وما بعدها.
4. محمد بن هشام، السيرة النبوية، ج 1وص 286.
5. محمد بن إسحاق، السيرة النبوية، تحقيق أحمد فريد المزيدي، ج1 ص 184
6. نفس المرجع والجزء والصفحة، وانظر عتق بلال؛ محمد بن هشام، السيرة النبوية، ج 1ص 401.
7. سورة الليل، الآية 18
8. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل ابن كثير، ص 2004، طبع دار ابن حزم، ط1 سنة 2000م.
9. أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في سننه، رقم الحديث 7446.
10. سورة التوبة، الآية 40
11. سورة آل عمران، الآية 144
12. رواه الإمام في محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه، رقم الحديث 3667.
13. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2 ص 189
14. موقع المكتب الشاملة http://shamela.ws/index.php/author/1386
15. لم أجد تاريخا محددا للطبعة الأولى إلا بعض الإشارات في مقدمتها التي نشرها في الطبعة السادسة.
16. أنظر مقدمة الطبعة الأولى من الكتاب، ص 26
17. من مقدمة الطبعة الأولى للكتاب، ص 28.
18. سورة الشورى، الآية 38.
19. سورة الأنعام، الآية 162
20. سورة البينة، الآية5
21. أخرجها لإمام محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه، حديث رقم 1.
22. رسالة أبي بكرإلى خالد ومن معه باليمامة يسيرهم إلى العراق، ص 376 من كتاب الوثائق.
23. سورة النور، الآية 55
24. رسالة أبي بكر إلى خالد ومن معه باليمامة يسيرهم إلى العراق، ص 376 من كتاب الوثائق.
25. نفس الكتاب والصفحة.

26. سورة آل عمران، الآية 133
27. مجموعة الوثائق السياسية، محمد حميد الله، ص 376،
28. الوثائق، ص 375
29. سورة التوبة 41
30. الوثائق، ص 396
31. كتاب أبي بكر إلى أبي عبيدة يخبره بتولية خالد عليه، ص 392 و393 من كتاب الوثائق.
32. سورة الفتح، الآية 29
33. الوثائق، ص 371.
34. الوثائق، ص 373.
35. رسالة أبي بكر إلى خالد يحفزه للإسراع بالسير إلى اليرموك، ص 390 من كتاب الوثائق